

الحلقة (٢٤)

لا زال الحديث موصولاً ومتصلاً عن جريمة فردية تتحول إلى اجتماعية وتتحول إلى دولية، تلك الجريمة هي الربا، وقد حارب الإسلام بالوسائل كلها الربا، ونفّر منه، وقرأنا قول الله عز وجل: ﴿قَدْ نَبَأَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الرِّبَا هَدًى مِّنْ رَبِّهِمْ أَنَّ اللَّهَ يَمْحُو مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وذكرنا أن المراي يضر نفسه إن هو لم يتب، فقد رضي بلسان الحال الحرب مع الله عز وجل، فالمراي سيكون عرضة لعقاب الله عز وجل من الوجوه كلها، والقرآن الكريم يذكر لنا نماذج مُنفرة عن التعامل السيء للمال (المال غير الراشد)، وقلنا لكم إن قارون كان النموذج السيء لرجال الأعمال السيئين، والقرآن لم يترك شاردة ولا واردة إلا وأتى بها، فيضرب لنا نماذج من الصلحاء من رجال الأعمال الذين جعلوا الدنيا مطية للآخرة، وذلك بأن قادوا المال ولم يقدمهم المال، وهناك فرق بين الأمرين.

فمن قاده المال ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ فمن قاده المال ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

إذاً المال الرشيد الذي يدل على أن صاحبه يعرف فيه حقاً لله عز وجل هذا هو المعني بقوله صلى الله عليه وسلم: (نعم المال الصالح للرجل الصالح).

فإذاً على المراي أن يقف وقفة صادقة كاشفة عن نفسه ومع نفسه، ليعلم إن هو لم يتب من هذه الآفة ولم يقلع عنها فإن عقابه ومصيره المعركة ﴿فَأَذِّنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

فأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يهدي المرابين من المسلمين ليستعملوا هذا المال فيما يرضي الله عز وجل والانضواء تحت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

❖ قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتِئْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾

﴿وَإِنْ تُبْتِئْتُمْ﴾ أي من الربا.

﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ أي غرماؤكم بأخذ الزيادة.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أنتم من قبلهم بالمطل والنقص.

والجملة حالية ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي فإن تبتتم يأبها المرابون من الربا وأقلعتم عنه فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تأخذون زيادة على رأس المال وقد تبتتم، ولا تظلمون من غيركم الذين تتعاملون معهم بأن يماطلوا أو بالنقص، والجملة حالية.

﴿قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ العسرة اسم من الإعسار وهو ضيق الحال من جهة عدم المال.

﴿ في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ قد استعملت "كان" تامة، وجائز في غير الكتاب العزيز أن نقول: (وإن كان ذا عسرة) وهناك قراءة شاذة: ﴿وإن كان ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾ والأمر واسع في اللغة وهذا يدل على سعة العربية واتساعها.

﴿ قوله تعالى: ﴿ فَنَظِرَةٌ ﴾ أي التأخير.

﴿ إِيَّاهُ ﴾ قلنا لكم أن ميسرة فيها قراءتان والقراءتان واردتان، الأولى {ميسرة} بضم السين و{ميسرة} بفتحها وهما لغتان، ولعل الإمام نافعا قرأها {ميسرة}.

لا يجب لمسلم أن يخون غيره، كما أن غير المسلم لحكم العلاقة الإنسانية إذ كلنا مخلوقون على حد قوله تعالى: {مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} فإذاً على البشرية جمعاء أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فعلى البشرية جمعاء أن تنجي الربا جانباً، وتستعيض عنه بالاعتصاف الذي يحقق المصلحة للطرفين، وهذا ما دعا إليه الإسلام، أما إن استمر التعامل الربوي، والفقير يزداد فقراً والغني يزداد غنى، فإن للأغنياء يوماً طويلاً مع الفقراء، إن الفقير إذا شعر بأن الغني استولى على كل شيء وشعر أن هذا الغني يترفع عليه وأنه لا يرحمه ولا يواسيه وينظر إليه بدونية ولا يغتفر زلة الفقير، عندها ويل للخلي من الشجي، فعلى المجتمع المسلم العالمي أن يطرح البدائل -وما أكثرها- للأمم كلها، على أن الاقتصاد السليم هو ما كانت المعاوضة فيه لا يترتب عليها ظلم، إنما هذا يأخذ حقه كاملاً وذاك يأخذ حقه كاملاً، إننا إن فعلنا هذا فنحن أمة الريادة وأمة الحضارة شئنا أم لم نشأ { وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } فيا أيها المرابي عليك أن تقف وقفات بينات واضحات مع نفسك حتى لا تقع في المحذور وحتى لا يقع المحذور.

﴿ قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ أمر باتقاء ذات اليوم، واتقاء اليوم لا لأنه يوم، اتقى الله عز وجل فإن اتقيته فقد اتقيت أهوال ذلك اليوم، والعرب تفعل هذا في لغتها كثيراً فتقول "شمرت الحرب عن ساق" ويقصدون أن الأمر جد عظيم.

فعلى المرابي وغير المرابي أن يتقَى الله عز وجل وعليه أن يخشى الله عز وجل، إنه إن اتقاه وخاف منه سبحانه وتعالى وخشيه حق الخشية فقد اتقى، وإن اتقى فقد نجا من هول ما في هذا اليوم ﴿ يَا أَيُّهَا

النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فإذا ذاك يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله

النساء والرجال؟ -فكأنها تستنكر- عراة حفاة في يوم القيامة ألا ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال ﷺ:

(إن الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض)، أحكام الدنيا انتهت هناك في ذاك اليوم ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا

تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ والذي عليه أكثر المفسرين أن

هذه الآية آخر ما أنزل على رسول الله ﷺ.

فقد قيل أنه عاش ﷺ بعدها ثمان ليالي، وقيل غير ذلك (قيل ساعات)، وهو يوم يستحق أن يفرد له ذكر خاص.

﴿وتذليل آيات الربا بهذه الآية هو دليل على أن الأمر جد خطير، وعلى أن المرابي وغيره -وكلنا عصاة- علينا أن نعود إلى الله عز وجل عودة صادقة بأن نبتعد عن البيوع المنهي عنها، ونواجه الحقيقة التي وإن بدت للرأي أن الربا تضخيم المال؛ لكن البيوع الأخرى الشرعية (ونحن نعلم في ساعتنا هذه أن هناك دعوات إلى التمويل الإسلامي ورأس المال الإسلامي، ذلك لأن الإسلام فيه علاج للمشكلات كلها، مالياً نفسها دولياً إنسها جنها، كل ذلك موجود في الوحيين).

فإذا ما قام الاقتصاديون المسلمون وانبروا للعالم والعالم قرية واحدة وبينوا حقيقة الاقتصاد الإسلامي لاشك أن بعض البشرية سيستجيب لهذه الدعوة الفطرية ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ والفطرة مركوزة هنا، فما من أحدٍ إن كان مسلماً عاصياً وإن كان غير مسلم وقت اللجوء والضرورة إلا أنه يلجأ إلى الله عز وجل ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَلَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

فختم الآيات بهذه الآية هو دليل على عظم الأمر وعلى شناعة الربا وعلى إثم أكل الربا ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿ويوماً منصوب على المفعولية (على أنه مفعول به) لا على الظرفية.

فإذا هذا هو موقف الإسلام والقرآن والسنة مع الربا: (لعن الله أكل الربا وموكله وكتبه وشاهديه)، الربا يتراءى للإنسان أنه يضخم المال وينميهِ ولكن الحقيقة إن عاجلاً وإن آجلاً هو ينقص المال وينغصه ويمحقه ويذهب به، ويجعل هذا المرابي صفر اليدين إن في الدنيا أو الآخرة، إما معاملة مالية يدخلها بالملايين، فإذا هي ملائيم، فيشعر أن حساباته الاقتصادية كانت خاطئة.

إذاً عليه أن ينمي ماله في الاقتصاد الإسلامي، الذي هو فائدة واستفادة، وهو ربح في الدنيا وجنة في الآخرة بإذنه سبحانه وتعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

هذه إشارات وعبارات لا تفي الموضوع حقه في مسألة الربا، وسيأتينا أن هناك رحمة ورفقاً من الله عز وجل بأنه فتح باباً آخر لبيع آخر، بل ببيعاً أخرى حتى لا يأتي الإنسان ويقول: إن شريعتكم لضيقة، بل شريعتنا تراعي الإنسان كائناً من كان (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)، لا على ما قاله أولئك الأقدمون الذين يقولون ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّاتِ سَبِيلٌ﴾ أن نأخذ أموالهم أن نرايهم، أما نفس الديانة فأما صاحبك فلا تخنه لا في ماله ولا في زوجته، هذه العبارات الموجودة لديهم في التوراة فالإسلام لا يقل هذا إطلاقاً.

هكذا تبني الحضارة الإنسانية يبني الإسلام الإنسان، وهكذا يجعل الإسلام الاقتصاد العالمي منفتحاً
{كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} لا أن ينتقل المال عينه بين رجل أعمال من أرباب
المليارات إلى رجل أعمال من أرباب الملايين، فالقرآن يدعو إلى أن ينتقل بين الجميع، ذلك من خلال
الأعمال الخيرة ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ التي فيها خير لرب المال، وخير لبني جنسه، وخير لبلده، وخير
لوطنه.

إذاً هذا هو الإسلام وهذا هو القرآن كعاداته ضرب أنموذجاً لرجال أعمال طيبين ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ
لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٦٥) أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ.

أمثلة حية على أن رجل الأعمال المسلم يجب أن يكون على هذه الصورة المشرقة في الدنيا والشواب
عند الله عظيم.

هذه هي آيات الربا وهي إشارات أو عبارات، أما الاستيفاء والاستقصاء والإحصاء فهو موجود في
كتب الفقه، وموجود في الدراسات المعاصرة، فمن أراد الزيادة فعليه أن يعود إلى تلك المراجع لينهل
منها ويربط الحاضر بالماضي ويربط الحاضر بالمستقبل، كل ذلك وفق شعار الاقتصاد الإسلامي تحت
خدمة الاقتصاد العالمي، الذي هو متشوق ومشتاق ومتعطش لهذا الاقتصاد القائم على الأخلاق،
وعلى مراعاة الإنسان، وعلى مراعاة البعد النفسي لبني الإنسان كلهم.